

لـ اخـرـة ذـيـنـهـ وـ مـحـمـدـ وـنـ الـزـبـرـ

مـعـجـبـةـ بـنـ

A 89

الظلال في الأدب



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْأَرْبَابِ

www.lisanarb.com

الظلال في الأدب

بِقَلْمِ

بِشَرٍ فَارسٍ

محاضرة ألقاها في المعهد الفرنسي للاحات الشرقيه بالقاهرة (٣٠ يناير ١٩٤٨)

مستخرج من مجلة الكاتب المصري مجلد ٨ عدّد ٢٩
(فبراير ١٩٤٨)



القاهرة

دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

١٩٤٨

893.785
F223



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanearb.com رابط بديل

الفلال في الأدب

« وأقفر الشعر ما تخض فلم يعطك غرضه إلا بعد محاولة منه »
لأبي إسحاق الصابي

إلى الصديق الأكرم الأستاذ الدكتور طه حسين بك
سنت وغنت ، وزاد الله فطنتك وثباً إلى وتب ، ووصل قلمك برقة
الإنسان وقوة الامتناع .

عرض لك شأن الأدب الذي عليه ينبعض ظلٌّ لطيف يوم أقبلت إليك
بقصيدة أني إخلاصك للفن الصرف إلا أن تخرج في هذه الجلة ، فخرجت لشهرين
مضيما ، وأنت إلى سرّها غير منجذب إلا شيئاً ولأسلوبها غير مهتر . على
أنك رأيت أن الأدب العربي هيهات أن تنحصر مذاهبه في السنة الغالية الآن ،
وأن الإنكار لما يفارق مجراه العادة ليس سوى تعنت يُغلّب التضييق على
التفسير والاقتداء على الابتداع . وأيضاً رأيت أن من إليه أمر النشر يحمل
به أن يطرح إلى الأفهام آثار القرائح على صنوفها ويعرضها على الأذواق ،
فتقع تحت التبصر فالتدبر فالتأخير ، وأنه مسئول عما يتولد وعما يتجدد ،
فإن هو نظر نظره فقد يكون لسواه نظر . وأنت في صنفك ذاك دلت على
السعة التي في صدرك ، واليقظة التي في حدسك ، والصدق الذي في همك .

ولست أول مرة أنتصر للأدب المفلل ، فقد اتفق لي أن أغرض له
من سنتين إذ خرجت لى مسرحية تضاربت فيها الآراء ، تبعتها قصص وأشعار
أثارت ما أثارت (١) . واليوم أخوض في شأن ذلك الأدب من باب طريف طرقته
طريقاً يسيرًا في حديثين مطبوعين أذاعهما راديو بيروت لخمس سنوات خلون .

(١) من يريد التتبع والتلوّن أن يراجع توطئة « مفرق الطريق » (القاهرة سنة ١٩٣٨)
ويملاها بقللي في « الرسالة » (خاصة العدد ٢٥١) ، وتصدير « سوه تقاصم » (١٩٤٢)
و« كلمة الشاعر » في « المقططف » (أبريل ١٩٤٥) ورسالة في مجلة « الفكر الحديث » (بغداد ،
العدد ١٠ ، ١٩٤٧) .

وإنما الغرض الذي إليه أنزع هاهننا هو الافتراض في موضوع سنج لك ولـي في ذلك اليوم ، ودار في ذهن كل منا دورانه ، ولم تنفسح لنا ساحتـه في الحال ، ففـاتـنا التذاكر والـشـاقـقـ .

الناس عندـناـ اليـومـ عـلـىـ هـذـاـ الرـأـيـ : «ـ التـأـلـيفـ بـيـانـ وـوـضـوـحـ »ـ .ـ قـرـىـ

الـمـشـئـينـ مـنـسـاقـينـ إـلـيـهـ وـالـقـراءـ بـهـ قـانـعـينـ ،ـ وـلـاـ يـشـدـ عـنـ هـؤـلـاءـ وـأـوـلـكـ إـلـاـ فـةـ

صـغـيرـةـ لـاـ تـنـفـرـ مـنـ كـدـ التـأـمـلـ وـمـشـقـةـ الـاسـتـشـفـافـ .ـ فـهـذـاـ الرـأـيـ اـنـقـلـبـ قـاعـدـةـ

خـطـيـرـةـ يـنـزـلـهـ الـمـسـمـسـكـونـ بـهـ مـنـزـلـةـ الـمـعيـارـ الصـحـيـحـ لـلـانـشـاءـ ،ـ قـدـمـ أوـ حدـثـ .ـ

لـاـ بـدـ مـنـ مـرـاجـعـةـ هـذـاـ القـاعـدـةـ السـائـرـةـ .ـ

إـنـمـاـ بـادـيـ بـدـءـ مجـتـبـلـةـ ،ـ فـكـانـ أـحـبـابـاـ وـأـنـصـارـهاـ اـشـتـقـوـهـاـ مـنـ قـولـ الـجـاحـظـ

فـ «ـ الـبـيـانـ وـالـتـبـيـنـ »ـ :ـ «ـ الـغاـيـةـ الـتـىـ إـلـيـهـ يـحـرـىـ الـقـائـلـ وـالـسـامـعـ إـنـمـاـ هـوـ الـفـهـمـ

وـ الـإـفـهـامـ »ـ فـبـأـيـ شـىـ بـلـغـتـ الـإـفـهـامـ وـأـوـضـعـتـ عـنـ الـمـعـنـىـ فـذـكـ هـوـ الـبـيـانـ »ـ .ـ وـقـدـ

وـقـفـواـ عـنـ هـذـاـ الحـدـ عـلـىـ حـيـنـ الـجـاحـظـ يـمـ الـكـلـامـ فـيـقـوـلـ :ـ «ـ وـحـكـ الـمـعـانـ

خـلـافـ حـكـمـ الـأـلـفـاظـ .ـ .ـ .ـ »ـ وـعـلـىـ هـذـاـ قـامـ التـفـرـيقـ بـيـنـ الـفـصـاحـةـ وـالـبـلـاغـةـ .ـ

فـالـأـوـلـىـ هـيـ الـظـهـورـ وـالـبـيـانـ ،ـ وـهـيـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـأـلـفـاظـ ،ـ وـأـمـاـ الـثـانـيـةـ فـتـدـورـ

عـلـىـ الـمـعـانـىـ وـقـدـ عـبـرـتـ الـأـلـفـاظـ عـنـهـاـ .ـ فـإـنـ وـجـبـ الـوـضـوـحـ عـلـىـ الـلـفـظـ فـلـيـسـ

يـلـزـمـ يـحـرـىـ الـكـلـامـ ،ـ لـأـنـ لـلـمـجـرـىـ طـرـفـيـنـ أـحـدـهـمـ عـنـدـ الـلـفـظـ وـالـآـخـرـ عـنـدـ الـمـعـنـىـ ،ـ

وـالـمـعـانـىـ عـلـىـ تـفـاـوتـ بـيـنـ الـقـرـبـ وـالـبـعـدـ ،ـ وـالـعـلـوـ وـالـنـزـولـ ،ـ وـالـخـفـاءـ وـالـمـشـوـلـ .ـ

وـلـاـ غـرـابةـ أـنـ تـنـفـحـ صـفـةـ مـنـ صـفـاتـ الـمـعـانـىـ عـلـىـ التـعـبـيرـ .ـ

وـكـيـفـ لـاـ نـرـاجـعـ هـذـاـ القـاعـدـةـ .ـ أـجـتـبـلـةـ كـانـتـ أـمـ غـيرـ مـجـتـبـلـةـ ؟ـ فـالـأـدـبـ

كـالـزـمـنـ دـوـّارـ ،ـ لـأـنـهـ مـنـ الـحـيـاةـ إـلـيـهـ .ـ وـإـنـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ الـحـيـاةـ وـفـهـمـنـاـ لـهـاـ

يـرـتـقـيـانـ بـتـدـرـجـ مـطـالـعـ الـفـكـرـ ،ـ وـيـتـبـلـانـ مـعـ تـحـولـ رـهـافـاتـ الـحـسـ ،ـ وـيـنـصـرـفـانـ إـلـىـ

مـاـ تـنـضـيـ إـلـيـهـ وـجـهـاتـ الـأـرـادـةـ .ـ فـانـ ضـغـطـ أـهـلـ صـنـاعـةـ النـقـدـ أـسـالـيـبـ الـكـتـابـةـ

فـ نـطـاقـ الـأـصـوـلـ وـقـيـسـوـهـاـ بـسـلاـسـلـ الـقـوـاعـدـ فـاـنـمـاـ يـصـحـ هـذـاـ لـعـهـدـ مـعـيـنـ .ـ

إـذـ أـنـهـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ فـأـفـقـ الـفـنـ أـنـ يـرـسـخـ أـصـلـ وـتـنـفـضـ قـاعـدـةـ مـنـ الـبـداـيـةـ

إـلـىـ الـنـهاـيـةـ .ـ ذـلـكـ أـنـ الـأـمـ جـيـعـهـاـ تـحـيـاـ ،ـ وـالـحـيـاةـ اـنـدـفـاعـ .ـ فـالـأـدـبـ الـمـرـبـوـطـ دـلـالـةـ

رـكـودـ مـصـيـرـهـ إـلـىـ الـفـنـاءـ .ـ

وـالـحـقـ إنـ الـعـهـدـ الـذـيـ نـكـادـ نـخـرجـ مـنـهـ فـيـ بـلـادـ الـعـرـبـيـةـ لـاـ يـمـتـازـ بـالـشـفـافـةـ

الحالية الراقية ، على ما يُسْتَنِدُ في مبحث سابق أنا عائد إليه في كتاب قريب ظهوره . ومن هنا كان صدّ الأفهام عن الأدب الذي يتطلب التقرى في تلطف والغلغلة في مجاهدة . غير أنه ليس لأحد أن يُيأس من تصعيده ثقافتنا في مدارج الصفاء والجمال . ولتعرفن "الأدب الحى" لأسمة حيّة ساعة يُفلق نطاق الأصول ويفلت من سلاسل القواعد . لذلك يحسن بأهل الصناعة أن يتضيقوا بهذه ويتبعصروا تلك ، حيناً بعد حين ، مستضئين بما وصلت إليه شعون الحياة في جانب الفكر وجانبه الشعور وجانبه الإرادة .

وبعد ، ستراني أستشهد بآداب الفرجحة وأستظهر بمذاهبيم على سبيل التنبيه لا على جهة الاستقصاء والتفصيل ، في الجزء الأول من هذا المبحث . علّة ذلك أنهم فطنوا قبلنا أن النضوح والحياة لا يكادان يلتقيان إلا في الوهم . ولا يُفْلِنُ خانٌ أن هذا الأمر موقوف على الأفرنج ، فائماً الحياة هي هي عندنا وعندهم . ثم هذا أدبنا قابل للقلل الذي يغشى النور المستطير ، ففي المنقول من تصووصنا ما يؤيد ذلك ، على ما يتبيّن لك في الجزء الثاني من المبحث . وأما الفلل الذي أغتنى به قلوب من أنواع الابهام الناعم يخرج القول مُخْرَجَ الوجه ويدخل موضوعه في سرّ الطافة .

ودونك الآن جوانب الحياة الثالثة :

أما جانب الفكر فقد بطلت أسطورة « العقل قادر على كل شيء » حتى إنه يميز الأشياء الخارجية فتتميز ويبين خصائصها فتبين . ومع ذهاب هذه الأسطورة ذهبت طريقة الكتاب الطبيعيين — وعلى رأسهم (زولا) Zola — الذين حاولوا أن يعلموا جميع الظواهر الاجتماعية كانت أو نفسانية أو جسمانية ، وهما منهم أن العلم قد يبلغ الغاية ، فيما من محظوظ يستعصى على الكشف . ومن حطم تلك الأسطورة الفيلسوف الفرنسي (برجسن) Bergson . فإنه عاد من سياحة تأمل مؤمناً بأن العقل وسيلة تتحقق مرة وتحتفق مرة ، وأن آلته النطق ، وأن النطق اصطلاح لا صلة له بجوهر الحقائق . وقد دلت مباحثه فيما دلت على أن العقل يحاول نظم الحياة في حين أنها تفارق تناسب في تعاريف ، وأن العقل يريد أن يعلم جنبات الحياة في حين أنها وثبات . فكيف للعقل إذن أن يوضح فيصيّب ؟ فائماً توضيحة افتعال واتفاق . ولكن البصيرة هي التي تستطيع أن تستشرف الستائر . غير أنها لا يلتزم النضوح بها ،

بل هي تتحسّس فتقبض على حقيقة هنا وتهتمى إلى خفيّة هناك ، فتدون ما وراء المحسوس والمعقول تدويناً متقطعاً بفضل لوعة هبّت وبواده خضرت . وقد ساير هذه الفلسفة أرفع ضروب الشعر الحديث في فرنسيّة وأجلّها . فليس أحد يجهل (مالارمييه) Mallarmé و (كلاوديل) Claudel ومن لف لفّهما من أبعدوا المنطق عن آفاق المعانى وعمدوا إلى المشاهدة الباطنة ، فانطروا على أنفسهم بحيث اتجهت الصور إلى الضمائر واتصلت بالسرائر فاتساحت بالرمز الذي يعقد دنيا الحس بعلم المعنى ويشق شعاب الرؤى ذوات الغرائب ، لأن الخيال موصول بما لا حد له ولا ضابط . هذا ويدو الشاعر (فاليري) Valéry في طوره الثاني مفكراً يعتمد الذكاء في مراقبة أحاديث الوجودان . غير أن العقل عنده ليس ذلك الذي يستعمل المنطق ويقع بالنظر في الأعراض ، ولكنه الإدراك الصرف المنزه عن المواقعات والملابسات ، التقلب في ملوكوت المعانى الأفلاطونية . ولؤلاء الشعراء الثلاثة ولاتباعهم نظم أجنبى عن الوضوح وعن التماسك . ولكن "تنغيماً مستتراً وتصويراً مشتبهاً وتلويناً مختلفاً توحى إليك بما لا يوحى به الشعر المتلامم بين" . وفي شعر (ريلكه) Rilke التشيكوسلوفاكي تعبر من طريق التخلجات والنفضات وحدها . ويتطاير شعراء «ماوراء الواقع» Surréalistes وبصوروه في فرنسيّة وإنجلترا في هذا الطريق فيبتعدون ويرجّلّون ما شاءوا في أفلوك غائمة .

وقد امتد مبدأ ذلك الأسلوب المستخف بالواقع إلى المسرح الذي يعتمد الإيماء والإيمام . وامتد في القصص الفرنسي مع (فورنييه) Fournier الذي سكب في قصته le Grand Meaulnes عصارات الموهوم في آية المعلوم . وهو يذكرنا إذا قوله شكسبير على شفاه مكثّف (الفصل الأول المشهد الثالث) : على هذا يجري التصوير الحديث في جملته ، إذ هو يُعدّ الفن أمراً خارجاً عن الواقع بل واقعاً آخر قائماً برأسه .

وأما جانب الشعور فقد اصرّف علم النفس الحديث بعد تجارب المنسوى (فرويد) Freud وأخْرَاهِه وبعد مباحث (برجسن) إلى عوالم النفس غير الوعية ، فتبين للناس أن حركات النفس إنما مجرّها في مجاهل الضمير . ومن

هنا اضطراب تلك الحركات وشذوذها . فمن العسف إذاً أن يؤلف القصاصون قصة فيأخذ في الشرح التفصي والتحليل المطرد ، كأنما أشخاص القصة عناصر كيميائية تُشخص في أنابيب فيظهر فعلها وتفاعلها . إن علم النفس تبنا على تضاعف الشخصية الواحدة فتبعد في غير الصورة المعروفة بها ، وعلى وثب الحسن من مكمنه فتتداعف التيارات الباطنة . فالقصاصون الواقفون في حياة الوجودان هو من ذهب قلمه وجاء مع انطلاقات الضمير ورجعتاته ، ثم من يصر في لحظة نفاضة بمشكلة من مشكلات الحسن الدفين فينقلها وجوها الخفي إلى القارئ . وعلى هذا شجنت مدرسة القصاصين المحليين مثل (بورجييه) Bourget الفرنسي ومن تقدمه من الإنجليز في عهد الملكة فكتورية . وقامت مقامها مدرسة المعتبرين الانفعاليين ، خاصة في إنجلترا . وفي هذه المدرسة كاتبتان رقيقتان (مانسفيلد) K. Mansfield و (ولف) V. Woolf . وكاتب عجيب مرهِق يرسل الحديث المضمَّن على هواه هو (جويس) Joyce . وهل أنسى D. H. Lawrence الذي غلغل إلى زوايا النزوات والنزغات ؟ وقد سبق هؤلاء القصاصون الروس إذ تنبأوا إلى متاهات النفس البشرية وغرائزها ونقاومتها قبل أن يثبت علم النفس الحديث طبيعتها . فادوستيفنسكي ونظراوه يعنون بالخفايا والملتويات والمعقدات . هذا وفي المسرح بُرِزَ هذا اللون من معالجة حركات النفس على يد الإيطالي (بيرنديلايو) Pirandello خاصة ، فمسرحياته ميدان تفرق الوجودان وتقسم ضرباته . وهذا اللون من التأليف سواء في المسرحية أم في القصة لا يجري المجرى الواضح ، بل هو قائم على جسَّات متلاحقة وخطارات وامضة يلفها جياعا إيهام منتشر على السياق . ولتجدون هذا اللون الجديد في التصوير وفي الرقص أيضا ، وحسبي هنا الأشارة إلى المذهب التعبيري l'expressionnisme .

وأما جانب الإرادة فما أظن أحداً يشك أن خاصية هذا العصر هو القلق الدائم . فقد وصفه نيتשה Nietzsche حيث قال : «إن العمران البشري محاولة وبخت لا ينقطع ، هذا هو تعليمي » .

قامت الثورة الفرنسية وعقبتها انقلابات فكرية ومادية وصناعية ، فاجتمدت العقول فارت في الخل وطمحت الأنفس فتوزعت بين المصاعد . هنا مذهب

وهناك مذهب ، هنا رغبة وهناك رغبة . وفي أواخر القرن التاسع عشر نقل (إيسن) Ibsen النرويجي مسازاعات الطبيعة الشمالية على حُشّب المسرح ، فأنشأ ذلك المسرح الرمزي الغامض بعض الغموض ، الراخرا بالاضطرابات الدالة على حقيقة الطبيعة . ولكن "خيراً من عبر عن ذلك القلق هو (مان) Mann الألماني وجيد Gide الفرنسي . أليس (جيد) الذي يصرح فيقول : « الألقاء ، ذلك دأي » Inquiéter, tel est mon rôle . فتري أشخاص قصصه تصر عليهم مأسى الضمير فترتاب بين أيديهم في حقوق الارادة وحقيقة الشهوة . وفي فرنسة أمثال (كوكتو) Cocteau وأراجون Aragon ترى أبطالهم تختل موازينهم وترتبا حرکاتهم وتتردد نياتهم كأنهم أعقاب (هميلت) Hamlet الذي ابتكره شكسبير من قبل وجعله متذبذباً أبداً . وهذا D. H. Lawrence في المجلة ظل ينشد بعث الروح الحائرة من طريق بعث الجسد الجائش .

وطبيعي أن ينشئ هذا القلق في اتجاه النزعه واستمرار الشخصية فلما في مجرى القصة نفسها ، إذ ينعقد غيم على جولات الأبطال وحلقات الموضوع . لهذا ، والذى زاد في انهزام الاطراد الجلى أن أسرار الكون أصبحت تعجز النظر المطلق ، إذ كل ما يحول في جنباب العالم يقع تحت مبدأ « الاضافة » أو « النسبية » على حد اصطلاحنا ، وهى التي أبرزها (أينشتين) Einstein فلا إطلاق في الخير ولا في الشر ، على ضدم ما تصيبه في قصص (ديكنز) Dickens والأخيليري . ويقابل (ديكنز) أحسن مقابلة الفرنسي (بروست) Proust الذى وجهه كثيراً من الكتاب الفرنسيين والإنجليز . والخلق بين أيدي (بروست) وأتباعه لا تقاس صفاتهم بمعيار ثابت ولا تردد أهواهم إلى مرجع صريح : إنهم في تقلقل دائم بالإضافة إلى الحوادث ، والحوادث تتموج ولا تنتهى .

وليس خروج العالم من الحرب الأخيرة إلا دخولاً في مشكلات جديدة سينشا عنها غضب الأدباء والفنانين على السياسة ، وياً لهم من رجالها ، وإقبالهم على القيم البشرية ينتقدونها من جديدة ويخكون معادنها في حيرة ورجفة . فهذا (سارتر) Sartre الذى راجت فلسفته من سنتين يميّز بين الموجود لذاته *l'être pour soi* والموجود في ذاته en soi فيرى أن الموجود لذاته لا يطابق نفسه على التدقيق لأن العَدَم يتطرق إلى كيانه ، ونتيجة هذا أن

الانسان — بما هو موجود لذاته — لا يقع تحت التعريف الواضح العقول . هكذا ترى أن الأدب الرفيع لهذا العهد في بلاد الأفرنج منصرف عن الوضوح في غالب الحال ، مجازاً لجوانب الحياة الثلاثة : الفكر والشعور والإرادة . وفي تأليف من كان سيد شعراء العصر (رابندرانات تاجور) ما يجعل الشرق يشارك على طريقته في ذلك الأدب الموفور للظلال ، وتحت الظلال رموز وخطفات .

لا جرَّم أن في استطاعة الأدب العربي أن يميل هو الآخر عن الوضوح بمحنة وبراعة . بل إنه لا يليق به ، في وقت اجتاز معه طور النشوء فاستوى وتمكن ، أن يجد أدباءً تعليمياً فحسب ، يستبدل به التصريح ويقلل التطويل ، فيختلف عن تسيير آداب الأمم الراقية ، مستعيناً بتيار القرائح في العلم والفن . وفي تراثنا ما يرد على الذين يحصرون أسلوب الأدب العربي في الوضوح ، لأن في هذا التراث ما يدل على قبول الانشاء للبهام .

ويحسن بي أن أحد المراد من الابهام الذي هو في الأداء ثم في موضوع الكلام . فبدئتي أنني لا أريد البثة بذلك النوع المقصود لوجه التورية أو التعمية أو الاغلاق . ومن ضروريه المتارئة : الملحن والألغاز والأحجاجي والغالطات المعنية — فهذا النوع دون مرتبة الفن الحق . ولكنني أعني ، باختصار ، ما يُعد مداه ودق مرماه ، في عبارة مستطرفة لامحة على غير تعقيد واضطراب وعلى غير خشونة واشتراك ، في مركب اللفظ وفي مفرده : إن دواعين الفصاحة والبلاغة حافلة بالكلام على « الحذف والقصر والتقدير والاضمار والكاف » . ومن الاملال أن أعدو التذكير هنا هنا .

وإذا دخل المجاز — وما أوسعه ! — في جانب التعبير فاني أحب أن أنقل إليك رأى صاحب كتاب « الطراز » وهو من الفحول . قال : « إذا عَبَرَ عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه ، وإذا عَبَرَ عنه بمجازه لم يعرف على جهة الكمال . فيحصل مع المجاز تشوق إلى تحصيل الكمال ، فلا جرَّم كانت العبارة بالمجازات أقرب إلى تحسين الكلام وتلطيفه ». والمجاز عنده « كلام غير تام » ، فهو كما جاء في كتاب « العمدة » لابن رشيق ، « أبلغ من الحقيقة لاحتله وجوه التأويل » .

وهناك باب آخر يدخل في التعبير ، وهو مشهور ، وهذا الباب هو الإيجاز . والإيجاز حذف فضول الكلام ، كما قالوا : ويرى ابن المقفع أنه قائم على الوحي والاشارة ، وأن ذلك هو البلاغة . وفي هذا الباب يدخل كثير من « جوامع الكلم ». وما جاء في « العمدة » أن « الاشارة من غرائب الشعر وملحنه ، وبلاعنة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأق بها إلا الشاعر المبرز والخاذق الماهر . . . وهذا النوع من الشعر هو الوحي عندهم ». وقد فصل علماء البلاغة الاشارة ، فمن فروعها المستحسنة : اليماء والتلويع والممحاة والتمثيل والرمز . وقالوا ، على ما جاء في « العمدة » : « أحلى الرمز الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الاشارة . . . كقول أبي نواس يصف يوماً مطيراً :

وسمسه حرّة مخدّرة ليس لها في سماها نور

فقوله : حرّة ، يدل على ما أراد في باقي البيت ، إذ كان من شأن الحرّة الحفر والخياء . ومن هنا يتبيّن أن الرمز الذي عليه مدار الكثير من التعبير الحديث في الشعر الأفريقي دار ، على نحو آخر ، لخواطر العرب وطاب لأذواقهم . وهو غير الرمز بالمعنى المدرسي السائد عندنا ، فالغالب على الافهام أن الرمز إقامة شئ بدل شئ آخر من باب التخييل ، كقولك « العسل » عنواناً للوطن و« البياض » عنواناً للطهارة . فالرمز بهذا المعنى المدرسي هيئ ، وأيما الرمز الذي عرفوه قد يهأ فأوغلى في خطف الممحات وأوفر استثارة للدفائن . وليس أسلوب الاشارة بالمستغرب أو الشاذ في لغة العرب ، فهذا إمام النقاد عبد القاهر الجرجاني يقول في « دلائل الإيجاز » : « وإذا تأملت كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الاشارة والتصرّف أغلب من التلويع . والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا ، فانك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزاً ووحيناً وكنايةً وتعرضاً وإيماج إلى الغرض من وجده لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه إلى المعينة يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفي » . . . حتى كان الفصحاح بالمعانى حرام ، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعریض غير سائغ . »

ولو لم يكن الوجي فضيلة ما مدحت العرب شعراءها به ، كما جاء في « البيان والتبيين ». ومن الغريب أن نرى البحترى وهو من شعراء الأفصاح يقول :

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

بل هذا القرآن عمدة التعبير وقدوة المنشدين . فأكثر **القدامي** ، كذاذكر صاحب « سر الفصاحة » ، يستحسنون منه ما كانت صفتهم الإيجاز والاختصار . وزاد صاحب « كتاب الصناعتين » : « وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام **مخرج** الاشارة والوحى ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا . »

والبسط في العبارة له مواقعه عندهم . فإنه يحسن في الموعظ والخطب ، ويحب إذا قصد المتكلم إلى إفهام العامة أو أصحاب العقول البليدة أو الأعاجم . وهيهات أن يقوم التطويل مقام سنة . لا ترى إلى صاحب « المثل السائر » إذ يندد بالذين « يطولون حتى تفهم العامة » لأن « نور الشمس إذا لم يره (السجين) لا يكون ذلك نقصاً في استئاته وإنما النقص في عجز (السجين) ». وقرر صاحب « الطراز » : « وما زعموه من ترك الإيجاز البليغ لأجل إفهام العامة ليس شرطاً معتبراً ولا يعول عليه . »

وأختم هذا الباب برأي صاحب « ديوان المعانى » في أسلوب الشعر ، قال : « والإيجاز يجمع الشعر أليق . . . ولا أعرفه إلا بلاغة في جميع الشعر لأن سبيل الشعر أن يكون كلامه كالوحى » .

والأآن نبلغ « التعريف » . والتعريف كما في « الطراز » : « المفهوم من القرينة دون دلالة اللفظ ، وهو كثير الدور في الكلام ، وله مدخل في البلاغة وموضع عظيم . »

وبلي التعريف الابهام نفسه . ففي « الطراز » أيضاً : « أعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مهماً فإنه يفيده بلاغة ويكتسبه إعجاباً وفخامة ، وذلك أنه إذا فرغ السمع على جهة الابهام فإن السامع يذهب في إيهامه كل مذهب . والابهام يقع السامع في حيرة وتفكير واستعظام . »

وإني أتمهل عند قوله : « إن السامع يذهب في إيهام المعنى كل مذهب »

وأرده بما أورده البرجاني في «دلائل الاعجاز» إذ جعل المزية والفضل في احتفال الكلام أكثر من معنى، مما يشير أرجحية السامع على شرط أن يكون من أهل الذوق والمعروفة. ومثل هذا مر بك في معرض المجاز. تلك لطيفة من لطائف العبرية العربية تصادف في الثقافة الافرنجية الحديثة ما ينظر إليها : فالشعر والمسرح والقصص متى ارتفعت هنالك لا تكون غذاء للغمائر وللاباب ذخراً إلا إذا اقتضت التفكير والتأمل واستدعت التأويل والتتشل . فمن الظلم أن يقول قائل ساء أو مغرض بأن أدبنا الغابر مثل الغالب من الأدب الحاضر في قرب المعنى وسهولة التعبير ، أو يقول بأن قارئه الأمس كأكثر قراء اليوم في بطيء الذهن وجود الخاطر ، أو في الفزع من نشاط الروية والكاف بالتسلي والتلهي . أما سمعت أن البصراء من القادة أكبروا المعنى الذي يجهد سامعة فشبهو بالجوهر في الصدف لا يبرز إلا للخاطر الذي يسعى فيفلح في شق الصدفة ؟ قال البرجاني في «أسرار البلاغة » : « ما كان من المعنى ألطف كان امتناعه عليك أكثر وإياوه أظهر واحتاجبه أشد . ومن المركوز في الطبع (وأنا أضيف : المرهف) أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق له كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل . »

لعمري ما فضل الشعر الذي يخلو لفظه ويبين « فإذا أنت فتشنته لم تجد هناك طائلاً » على ما يقول ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ؟ ولو كان اليس أشرف من العسر والجليل أرهف من الخفيف في رأى المستبصرين من العرب والمستعربين ما ذهب الراسخون في علوم القرآن مذهب المهرة في فنون النقد . ألا ترى إلى أولئك وهم بين يدي الآية الكريمة : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . . . » (سورة آل عمران) ؟ قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير : « واعلم أن العلماء ذكروا من فوائد المتشابهات وجوهاً ، الوجه الأول : أنه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة المشقة توجب مزيد الشواب . قال الله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَا يَعْلَمُمُ اللَّهُ الَّذِينَ جاهدوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ » . ولما ذكر ذلك جنة ، وتمتعها نورانية .

ولتجدد الأمثلة على تلك المعاني البهيمة في القرآن والأثر وكلام الفصحاء . قال صاحب « الطراز » : « ووروده (أى : الإبهام من غير تفسير) في القرآن كثير ». وقال ابن فارس في « الصاحبي » : « العرب تشير إلى المعنى إشارة وتوسيع إيماء دون التصریح وهو في أشعارهم كثير . »

ولو انفسح المكان لاستشهدت على كل ذلك بآيات من القرآن يرد الكلام فيها من مسلك تعريض وبأحاديث نبوية تدق فيها الرموز ، على ما قد يُسَيِّن صاحب « الطراز ». ثم باشعار كالتى ابتكرها أبو تمام الذى عرف كيف يعمل الفكر ويُذكى الحسن فيستخرج العويس ويسنبط الطريف حتى كاف الناس الغوص ، وحتى قيل له : لم تقول ما لا يفهم ، فقال لم لا تفهمون ما يقال ؟ ثم باشعار لابن الرومي يصح فيها قوله :

نار الروية نارِ جد منضجة وللبديهة نار ذات تلويع
وقد يفضلها قوم لسرعتها لكنها سرعة تمضي مع الريح

ثم باشعار لأبي الطيب المتنبى مثل التى قال فيها الخفاجى في « سر الفصاحة » : « إنها مما يسأل عن معناه ويفكر في فهمه ». ثم ينصل من « الفصول والغایات » لأبي العلاء الذى تطوح فطنته إلى الغاية القصوى وتلطفت إشارته في رهافة مُثلث .

وبعد الاستشهاد كنت عرجت على آثار الصوفية شعرها ونشرها ، ووقفت عند دقائقها ورقائقها من مكاشفات ومتنازلات هي خلسات من مُمْطَلَع نور الحقيقة الثابتة . وما كنت وقوتا عند مستغلقاتها وبداوراتها ، ذلك لأن الإبهام الذى أرفق له ليس مأتاه طلب اللغاز بوساطة التلبيس تارة وтارة بالعمد إلى المصطلحات الخاصة .

والخلاصة أن الإبهام واسع الخطوط في الأدب العربي الموروث ، شأنه في الأدب الأفريقي الحديث . وإذا اختلف هذا عن ذاك لتبعاد العهدين ، وتباعد الثقافتين ، وتغير نتائج العلوم ، وتفاوت تجارب النفوس فإنه يواطئه في ألوان من الجرى لاتفاق الأساليب في اللطافة : وليس غرضي من هذا المقال أن أقرن إبهام أدبنا السابق بأبهام أدب الفرنجية لهذا العهد في جوانب

الحياة الثالثة : الفكر والشعور والإرادة ، وقد توسيع هذه الجوانب ودققت وغارت . ولكن وجهي الاحتجاج بأن سر لغتنا لا ينكر الابهام من جهة الأداء أو من جهة موضوع الكلام ، فليس به حاجة واجبة إلى الضوء الذي يغمر الانشاء أى غمرة حتى إنه لا يدع للنظر فرحة للاحتلاء وللقواعد سبيلاً للاتقاد وللوجه مدعياً للانسراح .

وعلى هذا إن تطلب الوضوح في الأدب الرفيع الذي ينشئه المنشئ على غير رغبة في التعليم والتقرير والجدل والسرد وأشباهها إنما هو عدوان على شق جليل من عبرية العربية ذات الاقتنان الحالى .

واليوم يمهد لنا الطريقُ القديم المشىَ في منعرجات له جديدة . ثم لمَ لا يهيأ لنا الجرى في مسالك مستأنفة بفضل التوليد والاختراع ، مع ما يغدوهما من ثقاقة العهد ، ويُطريهما من رهافته ، وبع ما يلوثهما من أسرار الروح الشرقية ، العربية أصلًا أو فرعاً .

وسلام الله عليك من أخ يجل فضلك ويقدر ودك .

بشر فامس

نهار وليل

بودى لو أنهض والنهار باسم
فالمج إلى عجائب فاستمل
لكنى أخو العجز
لا أزال ظلاً للتعاس المتشاب
فلو اندفع النور لفرق الرغبات

ذات مساء إلى ولجمة نفسى تحدّرت

— بدودة من بدوات ! —

هل أردت تصفّح البستان لا ثمر فيه ولا زهر ؟
تحدرت وبما استطعت الصعود
لوجهى صرعى هول ما دريت ما يكون

الحب وحده كان يقوى أن يسعفني فأصعد

لكنه جاء من بعد ، بعد الأوان ، جاء من عل ، من مغيث البعد
أقبل عاجلاً مترعاً بالضوء فيض غير مستحق !
شدَّ ما فتنى فذوبته في خاطرى

وق الخاطر ظلتنا روحًا لصق روح
كلانا جائم محقق

هل كان في وسعي أن أدرك
قبل أن أغفى وأذهب في الغفوة
— ياله من سباتٍ لطيفٍ في ضميره خِصب ونشاط —
هل كان في وسعي أن أحلم باليقطة الناعمة
بالأعجوبة يعانقها النور !

في البدء داخل الدليل نهاري وأسرف
فغلظت العتمة
ولكنى أصررت على التبصّر
أصرُّ
والآن الآن أذكر كيف لفت العتمة خاطري
يالله ! يا ظلمةً تُسْجِرُ الخوارق في وليةجة نفس
يا ظلمةً أصبحت سنت مصيرٍ محيرٍ مصيرى الوهّاج .

ب. ف.

وراء المنظور

[إزاء صورة تمثل حانة ، والشمس فيها
إلى الزوال . في الحانة قنـاة وأعوانها .]

صحراء بـث الرمال
تقـذـى الأفق
شعـاء تـفـتـ المـلال
وتختـنـق
صـفـراء هـاجـها الزـوال
حتـى الحـنـق
هـبـت تـناـوـشـ الفـلـال
تحـبـي الرـمـل

ظـبـى يـنـادـيه السـراب
فيـعـتـنقـ
شـعـاعـ رـقـاقـ الشـباب
فيـحـترـقـ
تـكـلـؤـ مـجـرـبـ الذـئـاب
حـمـرـ الـحـدـقـ
تـصـبـ نـهـمـةـ الـدـعـابـ
عـلـى الـحـرـقـ

بـشـرـ فـارـسـ

باريس أكتوبر ١٩٣٦

* الشاعر رأى في الاستحداث في الأوزان سيعرضه بعد حين .



www.lisanarb.com

